الفصل الخامس

الاتجاه اللغوي العلاقاتي

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الخامس

الاتجاه اللغوي العلاقاتي

١- تمهيد:

عنيت دراسات معاصرة غير قليلة بالنقد اللغوي، الذي مارسته النقاد العرب القدامى في دراسة الشعر والنثر، وقد اتفقت هذه الدراسات على أن هذا النقد ليس المراد به مجرد تسجيل الأخطاء النحوية أو اللغوية على الشعراء، في ظل القواعد المعيارية التي وضعها النحاة، بل يراد به النقد الذي بدأه الرواد اللغويون وانلقاد في القرنين الثاني والثالث الهجريين: كأبي عمرو بن العلاء والأصمعي، وابن سلام، وابن قتيبة، والمبرد؛ حيث فحصوا النصوص الأدبية؛ لمعرفة ما في النص من عناصر فنية، أو لاستحسان أبيات في معنى خاص، أو لاستجادة مطلع قصيدة أو قصيدة كاملة، أو للموازنة بين شعر وشعر، أو للحكم على الشعر والشعراء بأحكام غير مباشرة "وصفية وتصويرية"(١).

---

(١) حسن البنداري: تنويع الحكم التصويري في النقد العربي القديم، دراسات عربية وإسلامية، ع(١٣) ١٩٩٣، ص١٧١ ما بعدها.

obeikandl.com

كما يراد به النقد الذي درس النصوص الأدبية في القرنين الرابع والخامس وما بعدهما من قرون؛ للكشف عن إمكانات الصياغة اللغوية في تأثر المتلقي بها، على نحو ما نجد في نظرات الآمدي، والجرجاني، وابن سنان الخفاجى، وعبد القاهر الجرجانى، والزمخشري، وضياء الدين بن الأثير وغيرهم.

٢- وجوهه:

والواقع أن هذه الدراسات المعاصرة عمدت إلى بحث مفهوم "لغة الأدب" عند هؤلاء النقاد، وفحص تفسيرهم ووصفهم لهذه اللغة، وبيان فكرتهم عن الخصائص الفعالة التي تنطوي عليها، وغير ذلك من الجوانب التي وظف لها أصحاب هذه الدراسات: "إحاطتهم بالتراث اللغوي النقدي"، و"خبرتهم" بمناهج الدرس اللغوي القديم والحديث، إلى جانب "وعيهم" بالفروق بين أجيال النقاد واللغويين، و"حرصهم" على تجلية النشاط اللغوي عند القدامى، على نحو ما يظهر في المؤلفات العديدة التي تشهد بذلك، والتي تعكس طائفة من الأفكار المتصلة بالجانب اللغوي، يمكن حصرها في وجوه عديدة منها: "فاعلية الصياغة أو علاقاتية اللغة"، و"الثنائية اللغوية"، و"لغوية الخطاب البياني".

أما الوجه الأول وهو: "فاعلية الصياغة أو علاقاتية اللغة" فتتمثل في تحليل محمد مندور[١] لنظرات الآمدي إلى أشعار أبي تمام والبحتري التى تبدو في ثلاث نواح:

الناحية الأولى هي: "أن اللغة وسيلة وغاية"[٢]، بمعنى أنها ليست وسيلة خادمة للفكر والإحساس فحسب، بل هي إلى جانب هذه الوظيفة الأساسية، "غاية في ذاتها" ومهارة الكاتب أو الشاعر ترجع إلى حسن ذوقه، وسلامة حسه، في إقامة النسب بين اللغة باعتبارها وسيلة واللغة بوصفها غاية في العمل الأدبى.

والمؤكد أن معرفتنا ببدء كل منهما يحتاج إلى "المران" على النقد، و"الذوق المستمر في الإحساس بمسألة فنية كهذه"؛ فأبو تمام فى شعره وظف أو توسل باللغة للتعبير عن "حمرة الورد"؛ فأساء اختيار اللفظ بقوله: (ملطومة بالورد) فكلمة "ملطومة" وسيلة تعبير، ولكن غايتها غير مناسبة، بل تدل على "جهل، وحمق، وخطأ" بوصف الآمدي. ولو كان أبو تمام اعتمد على "ذوق سليم" لما وقع في هذا الخطأ، أي أن الآمدي يعلي من شأن الذوق في استعمال

---

(١) النقد المنهجي:عند العرب، ص١٢٣، ١٢٤.

(٢) السابق: ص١٢٣.

اللغة؛ لتحقيق الغاية من استعمالها فلا يقع شاعر آخر فيما وقع فيه أبو تمام من خطأ يمجه كل ذوق سليم.

الناحية الثانية: "ضرورة الوعي بوسائل الأداء في اللغة وأوجه المعاني المختلفة". وهذه الناحية كشف عنها الباحث في تناول الآمدي لأخطاء أبي تمام. فحديثه عن "الواو" التي تسبق الاستفهام؛ فتخرجه من التقرير إلى النفي –يعد "ملاحظة بالغة الدقة"[1].

كما كشف بوقوفه على تفريق الآمدي بين دلالة (هل) عند أبي تمام، ودلالتها في الآية الكريمة **(هل أتى على الإنسان حين من الدهر)**– إذ نراه يقول: " إنه لو جاز أن تكون هل في الآية بمعنى (قد) فإنها لا يمكن أن تفيد ذلك المعنى في بيت أبي تمام؛ لأنها في الآية مستعملة مع فعل ماض (أتى)، والفعل الماضي بدلالة صيغته ذاتها يوجه الاستفهام نحو التقرير؛ إذ ينصب على حدث مضى. وهل أرضى في البيت (رضيت وهل أرضى إذا كان مسخطي...) تفيد الاستقبال. ونقل الاستفهام عن أمر مستقبل إلى التقرير ليس كنقل الاستفهام عن أمر ماض. فالقياس لا ينعقد لمخالفته خصائص اللغة"؛ مريدًا بذلك إرساء نتيجة هي أن "اللغة كشيء لا يقاس عليه، ولا ينبغي التجديد فيه".

---

(١) السابق: ص١٢٩.

وهذه النتيجة –كما يرى الباحث– نقطة ضعف يزداد وضوحًا عندما نلاحظ الآمدى يعيب على أبي تمام قوله: "لا أنت أنت ولا الزمان زمان"؛ لأن "لا أنت أنت" تعبير شعبي، وينكر عليه أن يقيسه على "ولا العقيق عقيق"(١).

الناحية الثالثة: "الصياغة بين كونها مجموعة ألفاظ، وكونها مجموعة علاقات". فقد عالج الباحث هذه الناحية التي تعد فكرة ماثلة في نقد عبد القاهر الجرجاني، سبق بها أحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا على يد فردينان دي سوسير المتوفى عام ١٩٣١، فقد فطن عبد القاهر إلى أن لغة الصياغة " ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات System de rapport"(٢)، وذلك في نص مطول بدلائل الإعجاز مؤداه: "أن الألفاظ لم توضع لتعيين الأشياء المتعينة بذواتها، وإنما وضعت لتستعمل في الإخبار عن تلك الأشياء بصفة أو حدث وعلاقة... وإذن فالمهم في اللغة ليس الألفاظ، بل مجموعة الروابط التي نقيمها بين الأشياء بفضل الأدوات

---

(١) السابق: ص١٢٩، ١٣٠.

(٢) السابق: ص٣٣٤.

اللغوية، وتلك الروابط هي المعاني المختلفة التي نعبر عنها، ومن ثم كانت أهميتها، وما لها من صدارة على الألفاظ"[١].

وقد تبلورت هذه الآراء في مقياس نقدي لغوي عند عبد القاهر، هو (نظم الكلام)؛ لأن هذا النظام: هو الذي يقيم الروابط بين الأشياء، تلك الروابط التي لم توضع اللغات إلا لعرضها والتعبير عنها لتلبية احتياج القارىء إلى الوعى لما تشتمل عليه من دلالات.

وعندما يرى عبد القاهر أن النظم لا يتحقق إلا بوضع الكلام وضعًا يقتضيه علم النحو، والعمل على حسب قوانينه وأصوله- نصل إلى تكوين فكرة مؤداها أن النحو: هو "العلم الذي يبحث في العلاقات، التي تقيمها اللغة بين الأشياء"[٢]. حيث يفيد القارىء وقوفه على تلك العلاقات الرابطة التى تحدث لديه استجابة الوعى بها والتفاعل معها.

ويرى الباحث أن هذه الفكرة التي تضم إلى النحو علم "التراكيب Syntaxe" -الذى يشبه ما نسميه الآن علم المعاني-

---

(١) السابق: ص٣٣٤، ٣٣٥.

(٢) السابق: ص٣٣٦.

يمكن أن تجدد فهمنا لتراثنا الأدبي كله، وإذا لم يكن بد من تدريس شيء نسميه البلاغة فلتكن بلاغة دلائل الإعجاز"[١].

ويبدو الوجه الثاني في "الثنائية الجمالية للغة" التي تتصل بعض البحوث المعاصرة الخاصة بتجلية أو تقدير الجهد النقدي لنقادنا القدامى المتعلق بفكرتي "السابق المتقدم الملاحق بآخر"، و"المثالي المنشود والانحراف عنه"[٢]، وكيف أن نظراتهم في هاتين الفكرتين قد دلت على وعي بخاصية جمالية للغة النص الأدبي، وهو وعي تقترب منه غير فكرة تتردد الآن في ميدان البحث اللغوي الأوروبي.

وتتعين الفكرة الأولى "السابق الملاحق بآخر" في أن اللغة ذات المستوى العادي أو النحوي سابقة على مستوى لغوي آخر لاحق لها هو المستوى الفني. نجد ذلك في كتابات البلاغيين اللغويين والنقاد. مثل ابن جني، والرماني، وعبد القاهر، وأبي حيان التوحيدى، والسكاكي، والسبكي، وابن الأثير، وغيرهم.

فقد وصف هؤلاء "المستوى العادي بأنه اصطلاحي عرفي، والمستوى الفني بأنه فردي أو مختص"[٣]، على النحو الذي نراه

---

(١) السابق: ص٣٩.

(٢) د.عبد الحكيم راضي: نظرية اللغة في النقد العربي، الخانجي- القاهرة، ط(١) ١٩٨٠، ص١٤٩، ١٩١.

(٣) السابق: ص١٥٠.

بتعبيرات مختلفة- وإن كان مؤداها واحدًا- عند ابن جني في الخصائص والسكاكي في مفتاح العلوم، وأبي حيان التوحيدي في المقابسات، وعبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، الذي يرى أن"أوضاع اللغة مرحلة سابقة لهيئات التأليف، بمعنى أن الألفاظ المفردة ليست لها مزية إلا بعد أن تؤلف في تركيب"، فمزية اللفظ وفنيته "تحدث بعد ألا تكون، وتظهر في الكلم من بعد أن يدخلها النظم"(١).

وعلى هذا – كما يقول الباحث- تعتبر مقولات التركيب: كالتقديم والتأخير والإيجاز والإطناب والحذف.. مرحلة طارئة ولاحقة؛ لأنه يسبقها مرحلة الاستخدام العادي للغة(٢).

ويرى الباحث أن النقاد بحثوا هذه الثنائية في النظام القرآني مثل: الباقلاني، وعبد القاهر، والأصبهاني، وابن الأثير، والزملكاني، والزركشي، والسيوطي، وبينوا أن ألفاظ القرآن تمثل مستوى عاديًا أسبق من المستوى الفني المتمثل في نظم القرآن وتراكيبه لأن إعجازه لا يكمن في ألفاظه المفردة، ولكن في طريقة نظمه وتأليفه(٣).

---

(١) السابق: ص١٥٣.

(٢) السابق: ص١٥٣، ١٥٧.

(٣) السابق: ص١٦٣.

وتعني الفكرة الثانية: "المثالي المنشود والانحراف عنه" في أن "المثالي" هو المستوى العادي، والمنحرف هو: المستوى الفني، بمعنى أن "البلاغة" كما يرى كل من: "الزمخشري في الكشاف، والقزويني في الإيضاح، والزركشي في البرهان: "تقف عند الصورة الفعلية للكلام، ولا ترفض ما فيه من نقص أو انحراف، بل تحاول استغلاله من زاوية فنية، بينما يحاول النحو أن يقدم صورة مثالية كاملة بالغة، فإذا لم تسعفه العبارة الظاهرة الفعلية في الكلام تطوع بتقدير هذه الصورة... ونجد مثلاً لذلك... دخول (لو) على الأفعال دون الأسماء، وكيف يضطر النحاة؛ محافظة على هذه القاعدة إلى تقدير فعل يتلوها يفسره الفعل المذكور"[1].

وفي إطار هذا المفهوم تنوعت رؤى اللغويين البلاغيين والنقاد إلى ثلاث: فثمة رؤية للغة من الجانب النحوي، وأخرى من الجانب الدلالي، وثالثة من الجانب البلاغي.

١- فمن حيث الجانب النحوي: أمكن للباحث أن يرصد فكرة "مراعاة الأصل المثالي المفترض"، الذي لا يتحقق في ظاهر الكلام، وإن كان الوعي به قائمًا مستمرًا في كثير من المظاهر

---

(١) السابق: ص١٩١، ١٩٢.

التي تقبل الانحراف –كظاهرة "الإدغام" عند ابن جني، فصيغة "الأصم" منحرفة عن أصل مثالي هو "أصمم".

ويبين الباحث في حدود هذا الجانب أن ظاهر العبارة ليس هو كل شيء؛ لأن هناك مستوى مثاليًا قد لا يتحقق في واقع العبارة المحسوسة، وإنما يتكون من طريق "التقدير الصوري"، الذي نلجأ إليه متى تأبى ظاهرة العبارة على الخضوع للقواعد المقررة.

ومن المظاهر كذلك : الانحراف عن الأصل في مجال الشرط"، و"مجال المطابقة بين الصفة والموصوف" وغيرهما. ويرى العلماء النقاد أن ظاهر العبارة تحته باطن مثالي منضبط خاضع للقواعد.

٢- ومن جهة الجانب الدلالي: جاءت دراسة اللغة باعتبار أنها تحتفظ بصورة مثالية كاملة، ويتمثل ذلك في ملاحظة طبيعة أو خاصية البنية العميقة للغة والبنية السطحية لها، فالبنية العميقة Deep Struture هي المثال لأنها أصل كامن في البنية السطحية Surface Struture التي تشكل مظهرًا انحرافيًا عن الأصل المثالي أو البنية العميقة.

يتلاقى هذا المفهوم مع ما سماه الباحث: بالبعد المنطوق بالقوة، المراد به المنحرف، والبعد التقديري: المقصود به المثالي"[1]. المستخلص من عبارات ابن هشام في "مغني اللبيب" عن مقتضيات التقدير: مكانه، وكيفيته. وعبارات الزركشي في "البرهان" عن الحذف؛ إذ يشترط أن تكون في المذكور دلالة على المحذوف، وتلك الدلالة مثالية وحالية.

٣- ومن حيث الجانب البلاغي: يرى الباحث أن العلماء والنقاد قد عمدوا إلى التفريق بين النحوي والبلاغي من حيث الاختصاص، فالبلاغي يتناول ما بعد استيفاء الأصل الماثل في المثال النحوي؛ لأن شرط الانحراف عن هذا الأصل يتطلب أو يتضمن استيفاءه أولاً، "ولهذا لم يتخذ البلاغيون من موضوعات بحثهم ما يتعلق بمطلق الإفادة، ولا ما جاء على وفق أصل الكلام. ففي حديث البلاغيين مثلاً عن الحذف يرى عبد القاهر أن ترك الذكر أفصح من الذكر.

فأساس البحث البلاغي عند العرب هو الأصل المثالي، ثم الانحراف عنه، وفي ضوء هذا الأساس جرت أفكار البلاغيين في مباحث مثل: التقديم، والتأخير، وصورة بناء الفعل للمجهول، والنقص

---

(١) السابق: ص٢٠٤.

كالإيجاز، والزيادة كالإطناب، والتتميم، والتكميل، والتذييل، والتكرار، وغير ذلك[١].

وثمة انحراف عن المثالي في مباحث علم البيان: كالمجاز، والاستعارة، والكناية، والتمثيل التي تتخطى قوانين اللغويين بدلالات الألفاظ، فحديثهم عن المجاز المفرد "يحمل وعيًا بضرورة الانحراف عن الدلالة الحقيقية للألفاظ"[٢].

ويعني الوجه الثالث وهو "لغوية الخطاب البياني" بثلاثة أنظمة هي "نظام منطق اللغة ومشكلة الدلالة، ونظام الخطاب ونظام العقل، كما يعني بنظام التمييز بين الاستعمال الإشاري للغة، والاستعمال الانفعالي لها، وهي أنظمة بحثها المعاصرون في ضوء نصوص من النقد العربي القديم.

أما النظام الأول وهو: "نظام منطق اللغة ومشكلة الدلالة"[٣] فيراد به سبعة جوانب[٤]، تتعلق باستقلال الألفاظ، وأصل اللغة، والوظيفة، والربط المؤدى للتغيير، والوظيفة الدلالية للمعنى، والربط بين منطق اللغة ومنطق العقل، والفصل بين المعانى والألفاظ بداع نفسى.

---

(١) السابق: ص٢٠٨.

(٢) السابق: ص٢٣٢.

(٣) محمد عابد الجابري: اللفظ والمعنى في البيان العربي، فصول ع ديسمبر ١٩٨٥، ص٢١.

(٤) السابق: ص٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٣٢.

أما الجانب الأول فيعنى: أن الألفاظ مستقلة عن المعاني، وهي فروض نظرية أو ممكنات ذهنية.

ويقصد بالجانب الثانى: أن موضوع أصل اللغة عند البيانيين ينطلق من نطاق جامعي اللغة وواضعي المعاجم، وهو الفصل بين المعاني والألفاظ والأسماء.

ويبين الجانب الثالث: أن وظيفة النحو عند النحاة مرتبطة بتحديد المعنى أكثر من ضبط المبنى.

وأما الجانب الرابع: فيوضح ضرورة الربط في أية مسألة نحوية –كما نرى في كتاب سيبويه– بين التغييرات التي تحدث على مستوى اللفظ، وما ينتج عنها من تعديل أو تحوير على مستوى المعنى.

وأما الجانب الخامس فهو: الوعي بوظيفة "الدلالي المعنوية" التي تحصل استدلالاً في رأي ابن جني. فعندما نسمع لفظ (ضرب) في صيغة الفعل فإن فكرنا يتجه مباشرة إلى التساؤل عن الذى فعل الضرب، وهذا البناء على مقدمة منطقية ميتافيزيقية من المقدمات الأساس في النظام المعرفي البياني وحقله المعرفي والأيديولوجي، هي قولهم: "الفعل لا بد له من فاعل = العالم لا بد له من محدث".

ويبين الجانب السادس أن: علماء أصول الفقه أحكموا الربط بين منطق اللغة ومنطق العقل الذى اقترحه النحاة، لأنهم طابقوا فى أبحاثهم الأصولية بين الدلالة والاستدلال، أو بين طرق دلالة اللفظ على المعاني وطرق تصرف العقل فيها.

ويبدو الجانب السابع فى: فصل علماء الكلام فى الخطاب البيانى بين المعانى بوصفها تقوم فى النفس وهو ما يسمونه الكلام النفسى، والألفاظ باعتبارها حروفًا تلفظ باللسان. وهذا الفصل أساس "النظرية الأشعرية" التي حاولت به أن تلتمس الحل لمسألة خلق القرآن.

وأما النظام الثانى وهو نظام الخطاب ونظام العقل[1] فيتضح في الأمور الآتية:

أولاً: أعلى البلاغيون من شأن اللفظ على حساب المعنى في العمل البياني، بينما راعى المتكلمون جانب المعنى.

ثانيًا: تميزت الأساليب البيانية –من تشبيه ومجاز، واستعارة، وكناية وتمثيل– بخاصة "استدلالية"؛ تجعل الذهن ينتقل في كل أسلوب منها من المعنى إلى معنى المعنى. وهذه الخاصة تلتقي مع

---

(١) السابق: ص٤.

تفسير عبد القاهر للنظم بأنه: تناسق دلالات الألفاظ وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل.

ثالثًا: تجعل الأساليب البيانية السابقة المخاطب أو المتلقي يسهم في إنتاج المعنى المقصود بواسطة عملية استدلالية ينتقل فيها من خلال اللفظ ومعناه المتعارف عليه إلى المعنى الذي يقصده المتكلم، فاللفظ هنا لا يعطي المعنى، بل هو دليل إليه.

رابعًا : لا يكون البيان بالفكر وحده، بل يحتاج إلى اللفظ من حيث هو نظام خطاب... إذ يدل على أن نظام العقل يطابقه ويحتويه.

أما النظام الثالث فيتمثل فى: التمييز بين نظام الاستعمال الإشاري للغة، والاستعمال الانفعالي في تفريق عبد القاهر الجرجاني بين الألفاظ التي تكتفي بمجرد الإشارة إلى الصورة الباردة للشيء، والألفاظ التي تعبر عن حقيقة الشيء"[1]، فالألفاظ مجرد علامات اصطلاحية للإشارة إلى شيء ما، وليست للدلالة على حقيقة هذا الشيء، واللفظ المفرد باعتباره مجرد إشارة لا يمكن أن يدل على

---

(١) د. محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية. (د.ت)، ص٢٧٨.

معنى محدد، بل يدل على معنى مجرد يجعله محتملاً لمعان كثيرة، ومن ثم فلا معنى له. والذي يعطي التحديد للفظ أو الكلمة المفردة هو استخدامها في سياق يمنحها الدلالة المحددة، والقدرة على الحركة والعمل والتأثير.

كما أن انضمام الألفاظ – كما يفهم من نصوص عبد القاهر – بعضها إلى بعض ينتج معاني أو فوائد فيما بينها، وهذا دليل على أن في أعماق اللغة حركة من الخلق مستمرة؛ لا تنتهي عند غاية ولا تحد بنهاية؛ وهذا يعني أن اللغة ذات طاقة قادرة على "أن تقدم للمتلقي دلالات وفاعليات"[1]، بشرط أن يكون وراء هذه اللغة نفس أديب مبدع.

---

(١) السابق: ص٢٨٦.

obeikandl.com